جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم العلوم الإنسانية

السنة الأولى ماستر تاريخ **تخصص: الغرب الإسلامي في العصر الوسيط**

مقياس: النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي 1

المحاضرة (08): الكوارث الطبيعية والمشاكل السياسية والأمنية المؤثرة في النشاط الزراعي في الغرب الإسلامي (معوقات النشاط الفلاحي: الجوائح الطبيعية والأزمات السياسية وأثرها على الاقتصاد الريفي)

- **الهدف البيداغوجي :تحليل هشاشة الاقتصاد الزراعي الوسيط أمام الكوارث (الهشاشة البنيوية)، وفهم العلاقة الجدلية بين "الاستقرار السياسي" و"الوفرة الغذائية"، وأثر الأوبئة (الطاعون الجارف) على القوى العاملة.**

محاور المحاضرة:

- المحور الأول: الجوائح الطبيعية(The Natural Calamities)
- المحور الثاني: المشاكل السياسية والأمنية (عوامل بشرية)
- المحور الثالث: التداعيات الاقتصادية والاجتماعية (دورة الخراب).

مقدمة

غم التطور التقني الذي درسناه سابقاً، ظل الاقتصاد في الغرب الإسلامي رهيناً لتقلبات الطبيعة وجنون السياسة.

وعليه نطرح **الإشكالية :**كيف تضافرت قسوة الطبيعة (الجفاف، الجراد، الطاعون) مع عبث الإنسان (الفتن، الحروب، سياسة الأرض المحروقة) لتشكيل ما يُعرف بـ **"سنوات المسغبة"**؟ وكيف أدت هذه الأزمات المتراكمة إلى تراجع الإنتاج وخراب العمران الريفي؟

المحور الأول: الجوائح الطبيعية(The Natural Calamities)

كان الفلاح يواجه "ثالوثاً مرعباً" يهدد محصوله سنوياً:

.1الجفاف :(Qaht) العدو الأول

- **طبيعته :**نظراً للمناخ المتوسطي المتذبذب، كانت دورات الجفاف تتكرر بانتظام مرعب (تقريباً مجاعة كبرى كل 10 أو 20 سنة).
- **الأثر المباشر :**جفاف العيون، موت الماشية، وفشل المحاصيل البعلية (الحبوب).
- **النتيجة الاجتماعية" :**غلاء الأسعار" الفاحش، واضطرار الناس لأكل الجذور والأعشاب، وأحياناً الميتة (كما تذكر نصوص *روض القرطاس* في مجاعات العهد المريني).

.2الجراد" :(Locusts) السحابة السوداء"

- **الوصف التاريخي :**تصف المصادر أسراب الجراد بأنها "تحجب ضوء الشمس."
- **الضرر الشامل :**الجراد لا يترك "أخضر ولا يابساً"، فهو يقضي على محصول سنة كاملة في أيام معدودة، ويخلف وراءه بيضاً يهدد السنة التالية أيضاً.
- **الارتباط بالمجاعة :**غالباً ما يأتي الجراد بعد الجفاف، فتكون الضربة القاضية للفلاح.

.3الأوبئة والطواعين(Epidemics)

- **الطاعون الأسود (الجارِف) 749هـ/1348م :**

لم يكن هذا الوباء مرضاً عابراً، بل كان **"كارثة ديموغرافية شاملة "**ضربت البحر المتوسط كله، وتسببت في تخلخل النظام الزراعي عبر الآليات التالية:

.1الصدمة الديموغرافية: "إفراغ الريف(Rural Depopulation) "

- **حجم الكارثة :**تشير التقديرات (بناءً على ابن الخطيب وابن خلدون) إلى هلاك ما بين ثلث إلى نصف سكان المدن الكبرى (فاس، تونس، ألمرية). لكن الكارثة الأكبر كانت في **الأرياف**، حيث أدى موت الفلاحين إلى خلو قرى كاملة من سكانها ("قُرى خاوية على عروشها").
- **النتيجة المباشرة :**فقدان "القوة المنتجة". الأرض موجودة، والماء موجود، لكن **الإنسان** (العنصر البشري) اختفى. وهذا أدى إلى تقلص المساحات المزروعة بشكل حاد وفوري.

.2أزمة الأجور واليد العاملة(The Wage Crisis)

- بسبب ندرة الرجال، أصبح الفلاحون المتبقون عملة نادرة.
- أدى ذلك إلى **ارتفاع صاروخي في أجور العمالة الزراعية** .لم يعد الفلاح يقبل العمل بنظام "الخماس" التقليدي، بل صار يملي شروطه على ملاك الأراضي الكبار.
- عجز كبار الملاك (خاصة أصحاب الإقطاعات العسكرية والأوقاف) عن دفع هذه الأجور المرتفعة، مما دفعهم إلى **إهمال أراضيهم** وتركها تبور.

.3انهيار البنية التحتية (موت التقنية)

- الزراعة في المغرب والأندلس كانت تعتمد على "الري الصناعي" (الخطارات والسواقي) الذي يتطلب صيانة دورية ومستمرة.
- مع موت المهندسين (الخبراء) وموت العمال، تعطلت عمليات صيانة الخطارات والسدود.
- **النتيجة :**تحولت كثير من الأراضي المسقية الخصبة إلى أراضي بور جافة، وتصحرت مناطق واسعة في الحوز ودكالة، ليس بسبب قلة المطر، بل لغياب من يجر الماء.

.4شهادة "ابن خلدون": الوعي بالكارثة

لا بد من قراءة واعية لنص **ابن خلدون** في *المقدمة*، حيث لخص هذا التحول بعبقرية:

"انتقض عمران الأرض بانتقاض البشر... وكأن لسان الكون نادى في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة ." ابن خلدون هنا يربط مباشرة بين "انتقاض البشر" (الموت) وبين "انتقاض العمران" (الاقتصاد)، معتبراً أن هذا الطاعون هو الذي أسس لضعف الدولتين المرينية والنصرية (غرناطة).

.5التداعيات طويلة الأمد

- **تغير النمط المعاشي :**بسبب نقص اليد العاملة اللازمة للزراعة الكثيفة، تحول كثير من السكان المتبقين من "الزراعة" (التي تتطلب جهداً كبيراً) إلى **"الرعي "**(الذي يتطلب جهداً أقل ومساحات واسعة)، مما كرس "ترييف" المجتمع المغربي وهيمنة القبائل الرعوية.

- **الأثر الاقتصادي :**موت نسبة هائلة من السكان (القوى العاملة الفلاحية)، مما أدى إلى:
  - نقص اليد العاملة وارتفاع أجور العمال الزراعيين.
  - إهمال الحقول وبوار الأراضي لعدم وجود من يفلحها.
  - تراجع المساحات المزروعة وتقلص الإنتاج لعقود طويلة.

المحور الثاني: المشاكل السياسية والأمنية (عوامل بشرية)

إذا كانت الطبيعة قاسية، فإن السياسة كانت مدمرة.

.1الفتن الداخلية وتفكك السلطة

- **انعدام الأمن :**في فترات ضعف الدولة (مثل ملوك الطوائف، أو أواخر العهد الموحدي والمريني)، تحولت الطرق إلى مسرح لقطاع الطرق.
- **النتيجة :**انقطاع التواصل بين "الريف المنتج" و"المدينة المستهلكة". خوف الفلاح من الخروج للحقل، مما يعني تقلص الإنتاج للاكتفاء الذاتي فقط (زراعة الخوف).

.2الحركات العسكرية(Mahalla/Harka)

- **مرور الجيش :**سواء كان جيش السلطان (لجباية الضرائب) أو جيش المتمردين، كان مرور الجيش بقرية يعني "كارثة اقتصادية."
- **الاستنزاف :**الجنود يحتاجون للعلائق (طعام الخيل) والمؤونة، فكانوا ينهبون المحاصيل ويطلقون خيولهم في الحقول الخضراء، مما يتلف زرع الفلاحين.

.3الحروب الخارجية وسياسة "الأرض المحروقة"

- **في الأندلس (الصحائف/الصوائف) :**كانت استراتيجية الممالك المسيحية (Reconquista) تقوم على شن غارات موسمية وقت الحصاد لا لحرب الجيوش، بل **لحرق الحقول وقطع الأشجار** (تجريف الأرض) لتجويع المسلمين وإجبارهم على الاستسلام.
- **في المغرب :**لجوء بعض السلاطين أو المتمردين إلى إحراق المحاصيل أو طمر الآبار لمنع العدو من الاستفادة منها، والضحية دائماً هو الفلاح.

المحور الثالث: التداعيات الاقتصادية والاجتماعية (دورة الخراب)

ماذا يحدث عندما يلتقي الجفاف مع الحرب؟

.1غلاء الأسعار والتضخم(Inflation)

- ندرة السلع تؤدي آلياً لارتفاع جنوني في أسعار القمح (مبدأ العرض والطلب).
- ظهور طبقة **"المحتكرين "**الذين يخزون الحبوب لبيعها بأضعاف ثمنها وقت الأزمة، مما يزيد معاناة الفقراء.

.2الجلاء والنزوح الريفي(Rural Depopulation)

- **الجلاء :**هروب الفلاحين من قراهم بسبب الجوع أو الخوف.
- **الوجهة :**النزوح نحو المدن الكبرى (مما يخلق أحزمة بؤس وأوبئة داخل المدن) أو الفرار إلى الجبال الوعرة للاحتماء بها (مما يقلل المساحات المزروعة في السهول الخصبة).

.3خراب العمران (النظرية الخلدونية)

- نقص الإنتاج ⟵نقص الجباية ⟵عجز الدولة عن دفع رواتب الجند ⟵تمرد الجيش وسقوط الدولة. (سلسلة مترابطة تبدأ من "السنبلة" وتنتهي بـ "العرش").

خاتمة واستنتاجات

1. **هشاشة الأمن الغذائي :**لم يكن الأمن الغذائي في الغرب الإسلامي مستداماً، بل كان مهدداً باستمرار.
2. **التداخل :**أخطر الأزمات هي "الأزمات المركبة(Composite Crises) "، أي عندما يتزامن الجفاف (طبيعي) مع الفتنة (سياسي) والوباء (صحي)، كما حدث في منتصف القرن 8هـ/14م، مما أدخل المنطقة في ركود طويل الأمد.

مصادر ومراجع يمكن العودة إليها:

أولاً: المصادر:

1. **ابن الخطيب :***مقنعة السائل عن المرض الهائل*.(رسالة طبية/تاريخية تصف أهوال الطاعون الجارف في الأندلس والمغرب).
2. **ابن أبي زرع :***الأنيس المطرب بروض القرطاس* .(يسجل بتفصيل تواريخ المجاعات وأسعار القمح في فاس).
3. **ابن خلدون :***المقدمة* و*كتاب العبر* .(مصدر أساسي لتحليل أثر الطاعون وخراب العمران).

ثانياً: المراجع والدراسات

1. **إبراهيم القادري بوتشيش :***أثر الكوارث الطبيعية والمجاعات في تاريخ الغرب الإسلامي*) .المرجع الأساسي لهذه المحاضرة).
2. **محمد الأمين البزاز :***تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و19*) .رغم تأخر فترته، لكن مقدمته عن آليات المجاعة في التاريخ المغربي مفيدة جداً).
3. **محمد فتحة :***النوازل والمجتمع* .(يدرس انعكاس الأزمات في فتاوى الفقهاء).
4. **رزق، عواطف محمد :***الكوارث الطبيعية وأثرها في بلاد المغرب والأندلس*.